

التاريخ هو سجل الماضي بكل ما فيه من بطولات وقائع، ونصر وهزيمة وحية بكل أشكال تطورها، أو ما أنجزته كل أمة في الحقب الزمنية الماضية سياسيا وأدبيا وفنيا وعلميا، وعمرانيا وغيره بشكل عام، وهذا الإنجاز بتنوعه هو الذي يحدد حضور الأمة عبر تاريخها، ويمنحها ما تتمتع به من أصالة وعراقة بين الأمم والشعوب، ولهذا نجد الأمم والشعوب دائمة التمسك بهذا التراث، ودائمة التردد له، من خلال سرد وقائعه وتناول شخصياته، أو الإشارة إلى ما تحقق فيه أشكال الفنون والثقافة والفكر والأدب والعمران. فهذه الإنجازات هي ما يرسم ملامح كل أمة، ويحدد هويتها وشخصيتها، التي تتفرد بها عن غيرها. والأمة العربية كسائر الأمم لها تاريخها المضيء، وماضيها المشرف الذي تحقق بسواعد أبنائها، حين كانت لهم مع المجد وقفات ووقفات، سطورا فيها من الصفحات أروعها، ومن الغايات أسماها، فتحققت لهم السيادة وبلغوا حينها الريادة، فصاروا قبلة للأمم والشعوب المتعطشة للنور الإيماني، والهدي الرباني، الذي أخرجها من غياهب الكفر والجهل والتخلف، إلى طريق الهداية والرشد والفلاح، فحققت بذلك آدميتها، وعادت لها إنسانيتها وكرامتها التي أهدرت، بسبب تخبطها وضلالها عن الطريق القويم، فعادت إلى ما فيه صلاحها، وصلاح حاضرها ومستقبلها، وهذا كله بفضل الله أولا، وبفضل الأمة العربية والإسلامية، التي لم تبخل يوما من الأيام، عن مد يدها الكريمة بالخير والعطاء، لكل أمم الأرض، بل كانت سباقة في نقل معارفها وعلومها، وفنونها وآدابها، دون كلل ولا ملل، وهو ما سجله التاريخ، وشهد به الأشهاد الذين أنصفوا هذه الأمة، واعترفوا بفضلها وبدورها عبر التاريخ، فكان ذلك تخليدا لذكرها، ومدعاة لفخر أبنائها، الذين راحوا يسجلون وبكل حب ما تحقق في آدابهم وأشعارهم، إيماننا منهم بهذا التراث العظيم، ومساهمة منهم في نقله من جيل إلى جيل، ليكون نبراسا يقتدى، ونهجا يحتذى، يكفل لأمتهم تقدمها ورقيا، ويربط ماضيها بحاضرها في تواصل أبدي، يكون للشاعر فيه الدور الأكبر، من خلال ما يقرضه من أشعار، تتضمن تاريخ هذه الأمة بكل وقائعه ومشخصاته، وبكل مآثره وإنجازاته، وهو ما يخلد شعره ويرفع به من قدره، لما للتراث التاريخي من أهمية كبرى في حياة الأفراد والجماعات، بل هو ما يمثل أصالتهم وعراقتهم، ولهذا يكون في الحديث عنه إيقاظا للذاكرة، واستنفارا للمشاعر، التي ارتبطت بهذا التراث، وتعلقت بمقوماته، حتى صار جزءا لا يتجزأ من كيانه، وركنا من أركانها، الذي لا يقوم وجودها إلا به، ولا يتحقق بقاؤها إلا في ظله.

ولكن استلهام الشاعر للمضامين التاريخية، لا يكون بذكر الحقائق، أو بسرد الأخبار التاريخية كما هي، بل باستلهام مضامينها ورمزيتها ليخلق منها حالة جديدة مرتبطة بأصولها التاريخية، فضلا عن توظيف التراث التاريخي في المناسبة

والغرض الذي يتلاءم معها، من خلال استدعائه لشكل الحدث، ومكانه وزمانه وشخصياته، مما يضيف على التجربة الشعرية شيئاً من المصادقية والقبول عند المتلقي، خاصة إذا استدعي الشاعر من الأحداث ما كان لها وقعها ورمزيتها العظيمة، التي التصقت بالنفوس والقلوب، حينها يكون في استلهاها إثارة للمشاعر، واستفزازاً للأحاسيس، التي ارتبطت بتلك الواقعة، من فرح وحزن، ومن مسرة وألم، احتلت حيزاً من ذاكرة هذه الأمة وفرضت وجودها على ماضيها وحاضرها. ((فالأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية، ليست مجرد ظواهر عابرة تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، بل لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية، والقابلة للتجدد – على امتداد التاريخ – في صيغ وأشكال أخرى، فدلالة البطولة في قائد معين، أو دلالة النصر في كسب معركة معينة، تظل باقية وصالحة لأن تتكرر من خلال مواقف جديدة وأحداث جديدة وهي في نفس الوقت قابلة لتحمل تأويلات وتفسيرات جديدة)) (1) وهو ما يدفع الشاعر و بكل بقوة، إلى اللجوء إليها، والعودة بالذاكرة إلى أحضانها أملاً منه في استنهاض الهمم، وتوحيد الصفوف، خاصة عند أزمات الأمة، وعند الشعور بالخطر على كيانها ووجودها، وهو ما نراه قد تكرر عند الشعراء على مدى التاريخ، بل صار وسيلة من وسائل تواصلهم مع التراث أولاً، ومحاولة الاستفادة منه وتوظيفه بما يخدم قضاياهم المعاصرة ثانياً إذ ((أن التاريخ ليس وصفاً لحقبة زمنية من وجهة نظر معاصر لها، إنه إدراك إنسان معاصر أو حديث له، فليست هناك إذن صورة جامدة ثابتة لأية فترة من هذا الماضي)) (2).

ولهذا شكلت عودة الشاعر إلى التراث التاريخي، والارتداد إليه إعادة بناء الماضي وفق رؤية عصرية، تعبر عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحاته وأحلامه، وهذا يعني أن الماضي يعيش في الحاضر ويرتبط بعلاقة جدلية تعتمد على التأثير والتأثر، تجعل النص الشعري ذا صفة توثيقية، يكتسب بموجبها دليلاً محكماً، وبرهاناً قوياً على ماضي الأمة التليد، وحاضرها المجيد، أو يصور حالات انكسارها، ومدى انعكاسه على الواقع المعاصر، مما يجعل الشاعر يستلهم أوجه التشابه بين أحداث الماضي، ووقائع العصر وظروفه إن سلباً أو إيجاباً، وهو في هذا كله يطلق العنان لخياله لكي يكشف عن صدى صوت الجماعة، وصدى نفسه في إطار الحقيقة التاريخية العامة، التي يبحث عنها، أو الموضوعات التاريخية الكبرى، التي تشكل حضوراً بارزاً آخر في تاريخ الأمة، دون الخوض في جزئيات صغيرة وعندما نقول بوثاقية الشعر، فلا نقصد به أن يحقق الشاعر القيمة " الوثائقية " ذاتها، التي يسعى المؤرخ إلى تحقيقها فيما يرويه من أحداث، أو أن يبقى الشعر رهينة في

(1) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 151.

(2) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 151.

قبضة التاريخ ووقائعه وحقائقه، بل تعني قدرة الشعر على استحضار وقائع التاريخ وشخصياته، وإضفاء عليها بعدا يستجلي من خلاله صورة العصر وما فيه من أحداث، ويتوقف نجاحه في هذا التوجه الفني، على إمكانية إخراج الحقائق التاريخية من نطاقها العلمي الجاف، إلى منطقة الشعور الحار المتدفق، حيث يضيف عليها الشاعر شيئا من روحه وذاته، حتى تستوي كائنا حيا نابضا بالحرارة والصدق والأصالة، وهذا ما عبر عنه " هرنشو " على لسان الأدباء بقوله: ((إن العلم بالغما ما بلغ، لا يعطينا من التاريخ سوى العظام المعروقة اليابسة، وإنه لا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام، وبعث الحياة فيها، فإذا ما أحيانا الخيال، فهي بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب المبدع، حتى تبرز في الثوب اللائق بها، وتعرض بحيث تصبح قوة فاعلة في عالمنا هذا)) (3) هذا فضلا عن قدرة الشعر على استحضار وقائع وأحداث سكت عنها التاريخ نفسه، حينما كان يكرس بعض اهتمامه، لتصوير حياة الملوك والأمراء والعظماء وتاريخهم، دون النزول إلى حياة العامة. وقد نبه " فازيليف " إلى هذه الخاصية، حين درس شعر أبي تمام والبحتري، على ضوء الأحداث التاريخية الكبرى، التي هزت المجتمع العباسي في عصرها فقال: ((قراءة شعر هذين الشاعرين، تدلنا على أن المؤرخين أهملوا بعض الوقائع الهامة، وقدرنا كبيرا من التفاصيل)) (4) وهو ما أشار إليه الدكتور زكي المحاسني بقوله أيضا: ((فلطالما كان شعر أبي تمام في حروب الروم مثيرا للصورة، وموضحا لألوان الحوادث، وهذا فضل الشعر العربي على التاريخ، فإني رأيت ما أضاعه التاريخ حفظه الشعر في كثير من الحوادث)) (5) وبهذه الصورة يصبح الشعر سجلا إنسانيا، وحافظا للذاكرة من الضياع والنسيان.

لقد أدرك الفلاسفة والمؤرخون والشعراء على حد سواء، أهمية العلاقة الجدلية التي تربط الشعر بالتاريخ، لذلك اهتم " أرسطو " في كتابه فن الشعر " بتوضيح هذه العلاقة والفرق بينهما، واضعا في اعتباره طبيعة كل منهما وغايته بالنظر إلى موضوعه، سواء كان ما يرويانه منظوما أو منثورا ((فقد تصاغ أقوال هيرودتس في أوزان، فتظل تاريخا سواء وزنت أم لم تزن، بل هما يختلفان بأن أحدهما يروي ما وقع، على حين يروي الآخر ما يجوز وقوعه ومن هنا كان الشعر أقرب إلى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ، لأن الشعر أميل إلى قول الكليات على حين أن التاريخ أميل إلى قول الجزئيات)) (6).

(3) علم التاريخ، هرنشو، تحقيق عبد الحميد العبادي (د ط 1973م) مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر، مصر، ص413.

(4) العرب والروم، فازيليف، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة (د.ط. د ت) دار الفكر العربي، مصر، ص 346.

(5) شعر الحرب في أدب العرب، زكي المحاسني (د ط 1961م) دار المعارف، مصر، ص 195.

(6) فن الشعر، أرسطو، تحقيق إبراهيم حمادة (د.ط. د ت) دار الأنجلو، مصر، ص 114.

وفق هذا المنظور تتضح قدرة الشعر على التخطي والتجاوز، وعدم الانحصار في إطار زمني ضيق - مثل التاريخ - يحد من حريته وقدرته على الإبداع والتألق، الذي لا تحده حدود زمانية ولا مكانية، خاصة وهو يسترجع الماضي ويصور الحاضر، ويستشرف المستقبل، أي يعبر عن ما كان، وما هو كائن وما سوف يكون، وهو في ذلك يتجاوز التفاصيل الجزئية، إلى الأطر الكلية والإنسانية العامة، مما جعل الشعر بهذه الصورة، أقرب ما يكون إلى الفلسفة، وأفضل من التاريخ الذي يقتصر على ذكر الحوادث والحقائق الجزئية.

أما إذا نظرنا إلى المؤرخين العرب، فقد أدركوا هم أيضا ومنذ وقت مبكر، طبيعة العلاقة الجدلية التي تربط الشعر بالتاريخ، فجاءت كتبهم التاريخية بما تحويه من حوادث وحقائق وشخصيات، مدعمة بحضور شعري مكثف، مما جعل إمكانية اعتبارها مصدرا من مصادر الأدب، بجانب قيمتها التاريخية الهامة، ومن ذلك على سبيل المثال جمع المؤرخ العربي المقدسي " أبو شامة المقدسي " في كتابه التاريخي " الروضتين في أخبار الدولتين الثورية والصلاحية " بين الشعر وأحداث التاريخ، فتعرفنا إلى أشعار ابن القيسراني وابن سناء الملك في مدح نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وعلاقة القصيدة الزمانية بحادثة تاريخية محددة في الزمان والمكان، كما تعرفنا إلى كثير من الشعر، الذي قيل في فتح بيت المقدس من خلال تأريخه لأحداث سنة 583هـ فكأنه كان يؤرخ بالشعر أو يشعر بالتاريخ.

إن إدراك المؤرخ العربي لقيمة النص الشعري، جعله ينظر إليه باعتباره عنصرا هاما من عناصر الكتابة التاريخية، وليس مجرد تزيين شكلي يحلي به كتابه التاريخي، وهذا يدل على وعي عميق من قبله، بالعلاقة الجدلية التي تربطهما معا. (وهي الحقيقة العلمية التي أدركها " هرنشو " وصورها أحسن تصوير، وبموضوعية متناهية في الصدق، حين وازن بين الثقافة العربية وعلم التاريخ لدى المؤرخين العرب والصليبيين، الذين قدموا إلى بلاد الشام فقال: ربما كان التقدم الملحوظ في تاريخ العهد الأخير من العصور الوسطى، ناشئا إلى حد بعيد من تأثير الحضارة العربية، التي شملت العالم الإسلامي في ذلك الزمان. لقد تماسست النصرانية والإسلام في الأرض المقدسة وما يجاورها، وفي صقلية وجنوب إيطاليا والأندلس.. فكان الصليبيون خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم العلم والمعرفة، لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانا لا تصلح معه المقارنة بينهما) (7) ثم يشيد بالمؤرخين المسلمين كالمسعودي وابن خلكان وابن خلدون هذا وقد أدرك الشعراء

(7) علم التاريخ، ص 47، 48.

العرب منذ العصر الجاهلي وحتى اليوم، أهمية توظيف الحوادث والشخصيات التاريخية في أشعارهم. فإذا كان ((التاريخ في أبسط تعريفاته يمكن اعتباره علما يدرس عمل الإنسان في الزمان والمكان)) (8) فإن الشعر لا يختلف عنه أيضا من حيث اهتمامه هو الآخر، ورصده وتسجيله لحياة الإنسان، وما تجري عليه من ظروف، وما تمر به من أحداث، في الإطار الزماني والمكاني، وهذا ما نلمسه عند رصدنا للكثير من الأشعار، وعبر مراحل زمنية مختلفة، اهتم فيها الشعراء بالكثير من الأحداث والوقائع الهامة في حياة الأمة، إلى جانب اهتمامهم بحياة الشخصيات التاريخية، سواء الجاهلية منها أو الإسلامية، أو أسماء الأماكن التراثية التي خلدها التاريخ وتعامل معها الشاعر بما لها من رمزية وقديسية في حياة الأمم والشعوب، مما جعل لها من المضامين الحيوية ما يكفل لها استمرارها، من خلال ما يلبسها الشاعر من ألفاظ جديدة تعيد إليها الحياة والسير مع الزمن، وكذلك بما يوافق روح العصر ولم يكن استلهم الشاعر للشخصيات والوقائع التراثية في الرموز الإيجابية فقط، بل كان هناك في التاريخ أيضا رموز وشخصيات وحوادث سلبية دونها التاريخ وتعامل معها الشاعر، عبر صور الهجاء والذم والتقليل من قيمتها ومكانتها، لارتباط هذه الدلالة بنفس المتلقي. غير أن حازم القرطاجني اشترط أن تكون هذه الحالات سواء كانت للأحداث والوقائع، أو للشخصيات أن تكون واضحة مشهورة إذ ((يجب على الشاعر أن يعتمد من ذلك المشهور الذي هو أوضح في معناه من المعنى الذي يتناسب بينه وبينه)) (9) وهذه إشارة ذكية تتحقق من خلالها العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، تجعل الثاني مدركا للأبعاد الدلالية، التي يسعى الأول إلى توصيلها، ويتحقق بها المشاركة الوجدانية بين الطرفين، فكأن القرطاجني يعيش بيننا، ويرى ما تزخر به بعض دواوين الشعراء المعاصرين من هوامش تعريفية، ناتجة عن اعتقاد الشاعر بأهمية غموض الدلالة الأسطورية أو التاريخية... إلخ التي يوظفها في خطابه الشعري، فيهرع في نهاية الصفحة ليعرف القارئ بها.

وسنحاول من خلال هذا المبحث الوقوف على أشكال التوظيفات المختلفة، التي تنبأها الشاعر أحمد الشارف، عند مقارنته لهذا المصدر من مصادر التراث، والذي وجد الشاعر في عناصره المختلفة ما يمكن توظيفه والإفادة منها، عند معالجته لبعض القضايا، أو عند تعبيره عن ما يكتنفه من مشاعر، أو ما يلم به من أحاسيس.

سجل الشعر العربي قديمه وحديثه الكثير من الأحداث والوقائع التاريخية، التي كانت لها أهميتها في تاريخ هذه الأمة، سواء منها المتعلق بالوقائع التي شهدتها

(8) المصدر نفسه.

(9) منهاج البلاغ وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة (د ط 1981م) دار المغرب الإسلامي، المغرب، ص 189.

العصر الجاهلي، نتيجة الصراعات والحروب التي كانت تدور بين القبائل على أسباب الحياة ومواطن العيش، أو التي كانت تجري لأسباب أخرى وقد عمد الشعراء إلى تدوين هذه الوقائع وذكر أماكنها، من باب الفخر وتمجيد الشاعر لقومه والإشادة بفرسان قبيلته وشجاعتهم في هذه المعارك، أو لهجاء خصومهم والتقليل من قدرهم وشأنهم، و عندما جاء الإسلام ودخل فيه العرب وتوجهوا لفتح الكثير من الأقاليم والأقطار والمدن، لم يكن الشعر أيضا ببعيد عن هذه الأحداث، بل دونها وسجل ما دار فيها من صور البطولات والتضحيات، التي قدمها هؤلاء الفرسان الذين خاضوا هذه المعارك، برغم مواجهتهم لبعض الأمم التي كانت تفوقهم عددا وعدة، لكن إيمانهم بدينهم و بنبيل رسالتهم، جعل النصر حليفهم والفتح جائزتهم. وهكذا تناقلت أخبار هذه الفتوحات وغيرها عبر الأجيال، بفضل تلك الأشعار التي صاغها الشعراء، وخلدت بكل مضامينها ودلالاتها، لتشكل فيما بعد تراثا تاريخيا يزخر بصفحات المجد والخلود، ويجد فيه الشعراء عبر مراحل تاريخية مختلفة، زادا يعودون إليه، وإلى صورته ومعجمه الشعري، ليستلهموا منه في أسلوب فني ما يعبرون به عن تجارب مشابهة، حدثت في عصر الشاعر، أو استذكروا لبطولات أجداده العرب في حقبة زمنية ماضية، لأخذ العبر وشد الأزر واستنهاض الهمم لا سيما في العصور التي شهدت انتكاسات وضعفا وهوانا وهزائم لهذه الأمة.

وإلى جانب الأحداث والوقائع من قبل الشعراء، فقد كان لهم استدعاء للأماكن التي كانت لها شهرتها أيضا، نتيجة ارتباطها بمعركة معينة، أو بواقعة معينة سواء في العصر الجاهلي، أو في العصر الإسلامي. أو أماكن لها شهرتها الحضارية والمعمارية التي شغل بها الشعراء، واستلهموها في أشعارهم. والمكان التاريخي هو ((المكان الذي لا ينفصل عن الزمان، مما قد يوحي بأننا نعتقد بأن ثمة مكان له علاقة بالزمان، وآخر لا علاقة له به)) (10) أو هو المكان الذي يعبر عن رمز تاريخي، أو معلم حضاري يعتز به العربي، أما علاقة الإنسان بالمكان فهو يرتبط ارتباطا وثيقا به منذ الولادة فالمكان يشكل جزءا من حياة الإنسان وأفكاره، فهو يحن إليه ويدافع عنه بكل الوسائل، والشاعر العربي يعتز بالمكان ولا سيما المكان التراثي، كونه يحمل من المضامين ما يغني أفكاره ويزين أشعاره، ولذلك تعامل مع المكان واستلهم تراثه وعبر عنه بالرمز والدلالات، وعبر به عن أفكاره وصياغة مشاعره.

بهذا يدخل المكان والواقعة التاريخية في التشكيل الشعري للنصوص، فضلا عن اغناء معجم الشاعر بالأفكار والصور الجديدة المستمدة من تلك الأحداث والأماكن،

(10) المكان في الشعر الأندلسي، محمد عويد محمد سابر (د ط 2005م) مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص 15.

ولهذا سوف نتطرق في دراسة هذا المبحث إلى جزئين الأول: يتعلق باستدعاء الأحداث والوقائع التاريخية. والآخر باستدعاء المكان.